

التاريخ العربي.. فكرةً ووعياً وكتابة

إعداد : محمد نجيب بوطالب

ذلك محور مجلة « الفكر العربي » في عديدها الأخيرين • و « الفكر العربي » تصدر عن معهد الانماء العربي للعلوم الانسانية ، وقد عودتنا على الاهتمام بالعلوم الانسانية من خلال تخصيصها عدداً لكل بحث انطلاقاً من ضرورات الثقافة العربية الراهنة •

ويبدو العددان الأخيران متكاملين في علاجهما للموضوع نفسه • ونحن نرى ضرورة عرض ملخص نقدي لهما في مجلة تختص بالتراث العربي وتهتم بقضايا التراث والتاريخ في الحضارة العربية • فدراسة التاريخ العربي لا تزال تتطلب مزيداً من البحث والدراسة في ضوء الاكتشافات الكثيرة والتطورات الحديثة • وقد أصبحت دراسة التاريخ العربي وخاصة التاريخ الاجتماعي للامة العربية سمة غالبة على معظم الفعاليات الثقافية العربية الراهنة •

ظهر العددان في ٦٧٣ صفحة من الحجم المتوسط • وقد اهتم الجزء الأول بدراسة الوعي التاريخي أما الجزء الثاني فقد اهتم بدراسة الكتابة التاريخية عند العرب • ويبدو أن العناوين الكبيرة وترتيب الموضوعات لم يكن خاضعاً للدقة المنهجية بقدر ما كان خاضعاً لتوفر تلك الموضوعات وفترة ورودها الى المجلة • يمكننا أن نوجز عناوين العدد الأول فيما يلي :

فكرة التاريخ : وتبحث في ماهية التاريخ وتطوره لدى المؤرخين ، وتعتبر معظم الأفكار الواردة في هذا المحور مترجمة عن مفكرين غير عرب •

أما المحور الثاني فيتعلق بالفكر التاريخي ويتعرض للوعي التاريخي عند العرب ونشوء علم التاريخ لديهم ويبدو ، حسب رأينا ، أن هذا المحور هو الأكثر التزاماً

بالموضوع الرئيسي الذي اختارته المجلة • كما يهتم المحور الثالث بتبسيط الضوء على بعض المؤرخين العرب ويرصد بعض مناهجهم في الكتابة • أما المحور الأخير فيركز على الجوانب التاريخية السياسية في تجليها ببعض موضوعات الفكر التاريخي وفي بعض الأقاليم العربية •

أما الجزء الثاني فقد حاول التخصص في موضوع الكتابة التاريخية العربية ، دلّ على ذلك ملفه الأول المعنون بـ « التاريخ الاسلامي » ، ويشمل نماذج من الكتابة التاريخية لدى الباحثين العرب المختصين ، وهي كتابة جديدة تستند الى منهج وأدوات تحليل جديدة تستفيد من مناهج التاريخ الحديثة • ذلك محتوى المقالات التالية : - الفتوح ومشكلة الأرض ، سقوط مشروع الدولة في العهد الراشدي ، - الأمراء التنوخيون والحملات الصليبية ، - المؤرخون الدمشقيون على عهد الناصر محمد بن قلاوون ، حيث يعطي هذا المقال لمحة عن الحياة الثقافية في العصر المملوكي ، ويعتبر أن الزخم الثقافي ليس سوى نتيجة للتطور الحاصل في الجهود السابقة (الأيوبي الزنكي ٠٠٠) • كما يخص الحركة الثقافية التي ظهرت في حاضرة دمشق (صاحبة فكرة الانبعاث الاسلامي وقائدته في حروبه التحريرية) •

ويذكر رواد التاريخ أمثال : أسامة بن منقذ ، وابن القلانسي ، وعماد الدين الأصفهاني ٠٠٠ ورواداً في التراجم أمثال ابن خلكان • لكن تلك الحركة طبعت بعدائها للفلسفة • كما طبعت بخدمة السلطان ، كما جاءت المؤلفات خالية من المبتكرات ، فجاء هذا العصر خالياً من الفلسفة الا في نهايته حين أنتج ابن خلدون تاريخه ووضع مقدمته في مجلد خاص ، ففتح آفاقاً في التفكير ، كما كان هذا العصر مناهضاً للعلم أيضاً ، فهذا ابن تيمية صاحب فكرة التجديد في الاسلام ، الى جانب ردوده الواسعة على الفلاسفة ، يصدر كتاباً تحت عنوان « ابطال الكيمياء وتحريمها ولو صحت وراجت » ، ثم قام الكاتب بتصنيف كتب التاريخ التي أنتجت في هذا العصر (القرن الرابع عشر الميلادي) الى ثلاثة أنواع هي : - كتب التاريخ العام - كتب التراجم - الموسوعات التاريخية والجغرافية ، وذكر المؤرخين الذين يمثلون كل نوع •

أما الدراسة التالية « الوضع الراهن لكتابة التاريخين الاسلامي والشرق أوسطي » والمترجمة عن أصلها الانجليزي فهي لكاتب معروف في الغرب وفي الشرق باهتمامه بالتاريخ الاسلامي خصوصاً والشرقي عموماً ، انه « البرت حوراني » صاحب كتاب « الاستشراق » المترجم في السنوات الأخيرة الى العربية • وبقطع النظر عن مدى صحة أفكار هذا الكاتب فان ما يميزه معرفته الواسعة بما ينشر في الغرب حول الشرق وحضاراته واطلاعه غير المحدود على التراث العربي - الاسلامي •

(وضع المقال بعد اجراء عملية تقصّ لأوضاع الدراسات الشرق أوسطية في الوقت الراهن أشرفت عليها جمعية دراسات الشرق الأوسط في أمريكا الشمالية ويقوم التقصي من جهة على ردود عدد من المؤرخين على قائمة استفسارات ، ومن جهة أخرى على مطالعاتي الخاصة •)

ويتحدث الكاتب في البداية عن تأخر دراسة التاريخ الاسلامي في الغرب (وحتى عصرنا الراهن لم تجذب دراسة التاريخ الاسلامي ذلك العدد الكافي من العلماء لأداء كل المهام الملحة) ويعتقد أن العوائق الناجمة عن نقص عدد المؤرخين الأوروبيين والأمريكيين في حق التاريخ الاسلامي ترجع الى التأخر النسبي للوضع العلمي في البلدان ذات العلاقة . وإذا قبلنا بهذا السبب أولاً ، فإننا لا نقبله على علته ، إذ لا بد من الإشارة الى أسباب ذلك التأخر في الوضع العلمي ، أليس الاستعمار بأشكاله القديمة والجديدة هو المسؤول الأول ، ألم يعبر المغول والتتار نهر الفرات على أكداس الكتب التي كانت تزين أرجاء بيت الحكمة ومكتبات بغداد ؟ وهل كان بإمكان صاحب المقال التعرض ، ولو بعبالة ، الى أهمية الكتب والمخطوطات الموجودة في مكتبات الغرب الرأسمالي وعن كيفية انتقال تلك الثروة الثمينة الى بلاد لم تنجز فيها . (لقد أحصينا مرة عدد المخطوطات العربية الموجودة في المكتبة الوطنية بباريس فوجدناها تزيد عن السبعة آلاف)

ولعل أهم ما يفيدنا به الكاتب القائمة البيبلوغرافية المتضمنة للكتب والعلماء الذين ألفوا في التاريخ والحضارة والاجتماع وكل ما يتعلق بالغرب والمسلمين سواء كانوا كتاباً عرباً أم أجنبياً .

كما يتحدث عن العوائق التي يسببها جمع المادة التاريخية بشكل غير دقيق ، ويعرض الحلول الملائمة لذلك بعرض الطرق والوسائل .

كما يتحدث عن دور المستشرقين في الكتابة التاريخية الشرقية فيرى أن الكتابات الاستشراقية كانت في عمومها تنبع من أحد المصدرين التاليين : « المصدر الثقافي - الديني » و « المصدر السياسي - المؤسساتي » . ولكنه يشير أخيراً الى التحول الذي شهدته كتابة التاريخ الاسلامي في العقود الأخيرة حيث بدى العمل بمفهوم جديد هو مفهوم « التاريخ الاجتماعي » .

وفي ختام البحث يعرض حوراني أهم الخطوات التي يمكن اتباعها والحلول المناسبة لجعل الكتابة التاريخية أكثر جدوى وفعالية وفهماً بالنسبة للغرب بشكل خاص .

نعود الى العدد الأول « ٢٧ » لنعرض بعض المقالات التي نرى انها تتعلق بمضمون محور التاريخ فضلاً عن كونها تدرس واقع الوعي التاريخي والكتابة التاريخية عند العرب .

« الحقيقة التاريخية والصورة التاريخية » ويركز فيه الأستاذ تيسير شيخ الأرض على مسألة المعاصرة التاريخية (ان يعاصر المؤرخ الحادثة في مكانها وزمانها بخياله) كما يبين قيمة الصورة التاريخية .

« الاسلام والوعي التاريخي عند العرب » يذكر فيه الدكتور قاسم عبده قاسم أهم التأثيرات التي طبع بها الاسلام الوعي التاريخي لدى العرب وخاصة اعتبارهم أمة واحدة ، وقد بين الكاتب فضل الاسلام على العرب بقوله : (فالحقيقة أنه لا يوجد في التراث التاريخي

لدى العرب قبل الاسلام ما يشير الى أن العرب قد تصوروا أنفسهم كأمة يجمعها تراث تاريخي واحد ، ذلك أن « الأنساب » و « الأيام » لم تكن تحتوي على مادة تربط بين ماضيهم جميعاً ، كأمة ، وبين حاضرهم على نحو حضاري شامل (٠٠٠)

— « لماذا غاب مبحث التاريخ في تراثنا القديم ؟ » للدكتور حسن حنفي . صاحب كتاب « التراث والتجديد » ويبحث في البداية في أهمية الوعي التاريخي عند الشعوب ويربط بين ذلك الوعي وبين التقدم الذي يضعها في الزمان ويجعلها تحدد دورها في التاريخ ، (فالشعور التاريخي هو شرط الوعي التاريخي) . ومهمة هذه الدراسة ليس الغرض منها العلم بل طرح هذا السؤال ومحاولة الاجابة عنه (ايحاء للناس ، ودعوة لهم للتفكير والتساؤل وكشفاً للبعد التاريخي في شعورنا القومي (٠٠٠)

ثم يقسم دراسته للتاريخ العربي الى مراحل ، مثل مرحلة ما قبل نزول الوحي اذ تركزت الحضارة حول الشعر الجاهلي فلم ينشأ حول الشعر علوم ، فقد كان العرب في غالبيتهم أميين ولا يعرفون التدوين ، فكانت ذاكرتهم مصدر تاريخهم ، ورواياتهم مصدر أخبارهم وكان التراث الشفاهي بديلاً عن التراث المكتوب . مرحلة ما بعد نزول الوحي ، وحفظه في الصدور ، حيث بدأ العرب يتعلمون الكتابة والقراءة . وبدأ عصر الترجمة وتأسس ديوان الحكمة ، وبدأت المراسلات ، المكتوبة بين القواد والملوك وتدوين الدواوين لعطاء الجند ، وبدأ جمع القرآن مكتوباً في مصاحف ، ثم بدأ جمع السنة في الاصحاحات ، مرحلة نشوء العلوم عن المصدر الأساسي الذي هو الوحي . حيث نشأ علم أصول الدين الذي حول النص الى فكرة والمنقول الى معقول ، وخاصة للدفاع عنه ضد مهاجميه ومنتقديه . فاستخدم المنطق وظهر أوائل المتكلمين . ونشأت حول المركز (الوحي) دائرة ثانية استفادت من الترجمات وردت عليها فتأسست الفلسفة . ثم نشأ علمان آخران يمثلان منهجين عمليين هما علم أصول الفقه وعلوم التصوف . فكان الأول هدفه معرفة كيفية استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها اليقينية فصاغ منهجاً استنباطياً استقرائياً ، بالقياس والاجتهاد . أما هدف التصوف فهو الذهاب الى ما وراء النصوص والأحكام ، ورؤيتها رؤية باطنية ، فالعلم الحق هو علم الروح بالروح ، علم بواطن القلوب علوم التدوق ، وليس علوم الجدل أو البرهان أو الفقه . لذلك سمي « علم التأويل » في مقابل « علم التنزيل » .

— نشأت علوم عقلية أو طبيعية خالصة تعتمد على العقل والتجربة مثل الرياضة ، والحساب والهندسة والجبر والفلك والموسيقا والعلوم الطبيعية كالطبيعة والكيمياء والحيوان . . . وهي أيضاً تقوم على الوحي ، فالوحي يدفع الذهن نحو اللامتناهي في الرياضة ، ونحو الطبيعة وتسخيرها للانسان .

— وأخيراً نشأت علوم انسانية مثل الجغرافيا والتاريخ ، اما بناء على أخبار السابقين أو بالاعتماد على الملاحظة والتجارب والأسفار ، وهي أيضاً تمتّ بناء على توجيه الوحي نحو الانسان والأرض وأخبار الأمم السالفة التي ذكرها القرآن .

فهل يمكن اقامة مبحث للتاريخ أساساً للوعي بالتاريخ ابتداء من علوم الدوائر هذه وحضارة الانتشار من المركز الى المحيط ؟ أم أن التاريخ ينشأ ابتداء من الدخول فيه ، ومعرفة قوانينه ، وعدم الارتباط بمصدر للمعرفة مسبق ؟ ان التاريخ لا ينشأ الا في حضارة تخلصت من أغلفتها وكسرت الحصار حولها ، وتحررت من اطارها الأبدى المرسوم وتململت من رتابتها وتكرارها ، وانتابتها هزات تعيد بناءها بعد تفريغ هوائها من فجوات . فالتاريخ لا يعرف النمطية والقوالب المسبقة ، لذلك لم يظهر لدينا مبحث التاريخ ولم ينشأ لدينا وعي بالتاريخ .

التاريخ لا ينشأ في الشعور الا كنتيجة لاثبات الحرية بل ان « التاريخ هو قصة الحرية » كما يقول كروتشه ، وان التاريخ كله قصة تحرر البشرية ، من الوصايا الخارجية للسلطين الدينية والسياسية .

كما تحدث الدكتور حنفي عن واقع نظرية المعرفة عند العرب متأسفاً على عدم استمرار مذهب الاعتزال الذي أعطى دوراً كبيراً للعقل في تفسير العالم ، « ٠٠ فاذا ما أدركنا الواقع من خلال النص وليس بتحليل العقل صعبت رؤيته وادراك قانونه ، وأصبحنا مهمشين على النصوص ، ندخل في معارك التأويل ، والواقع نفسه مسلوباً عنا فتركنا التاريخ لتأويل النصوص وتركنا الأشياء لمأحكات الألفاظ ، ولم نفكر في قوانين التاريخ كما فعل المعتزلة في الصلاح والأصلح والعوض ، والاستحقاق والاحباط ، والتفكير » .

وقد زاد الطين بلة دور الدولة ، « فلولا تركيز الدولة على الامام وامحاء دور الجماهير لخرج تصور للتاريخ يقوم على الجماهير وحركتها ومسؤوليتها وارادتها وكما انحسر التصور كله حول الزعامة والزعيم ولما أصبح الأبطال وحدهم هم صانعي التاريخ ايجاباً أم سلباً » .

وقد بين الكاتب كيف أن التاريخ غاب في علوم الحكمة ، ويضرب مثالا على ذلك بتصنيف الفارابي في « احصاء العلوم » ، وكذلك ابن سينا في « أقسام الحكمة العقلية » .

ولكنه يرى أن علم التاريخ عند العرب نشأ في الموسوعات التاريخية الكبيرة للطبري وابن كثير وابن الأثير والمسعودي والواقدي حتى المقرئ (٠٠) وقد تنوعت المناهج وأساليب العرض كما تنوعت الأهداف والغايات (٠) ثم قام بتصنيف تلك المحاولات في :

- ١ - العوليات .
- ٢ - تاريخ الطبقات .
- ٣ - تاريخ الحكماء .
- ٤ - تاريخ المصنفات .
- ٥ - تاريخ العلوم .
- ٦ - تاريخ المصطلحات العلمية .
- ٧ - تاريخ الحضارات والأمم .

ولكن التاريخ بوصفه علماً مستقلاً ظهر في علم العمران ، وكمقدمة للوعي بالتاريخ والكشف عن قانون تطوره عند ابن خلدون ، فكان هذا المؤرخ العالم مؤرخاً للحضارة العربية الاسلامية على امتداد القرون السبعة السابقة له .

وبعد أن يبين أهمية هذا المؤرخ والتحول الجذري الذي أحدثه في دراسة التاريخ مبرزاً الأدلة مناقشاً أهم أفكاره ، يخلص الى القول : ان فلسفة التاريخ تعبير عن الوعي بالتاريخ وفي نفس الوقت تربية لهذا الوعي وتطوير له . تخرج عن أن تكون مجرد تأمل نظري ، فهي في نهاية الأمر رصد لحركات المجتمعات في تطورها ، وبالتالي فهي علم الممارسة على مستوى النظر . وتلك مهمة يراها ضرورية من أجل ارساء شروط النهضة الحديثة .

وفي نهاية هذا العرض يجدر بنا الاشارة الى مقالة الدكتورة أمينة بيطار حول العرب والوعي التاريخي . . التي تعتبر أن العرب عرفوا الوعي التاريخي وشغفوا بالتاريخ وقد قامت بتلخيص الخصائص التي ميزت حركة التدوين في التاريخ العربي الاسلامي غير أننا نشير الى أن الكاتبة خرجت عن الحديث عن الوعي التاريخي الذي جعلته عنواناً لدراساتها وركزت على الكتابة التاريخية ، وهما حسب ما نعتقد موضوعان مختلفان وان كانا متكاملين ومن جهة أخرى فان الدراسة اهتمت بنشوء علم التاريخ العربي في الماضي فلم تربط واقع الكتابة التاريخية السالفة بحاضر الأمة الراهن . على أنه لا يفوتنا التنويه بما جاء في هذه الدراسة الغنية من أفكار ومعلومات مفيدة . فالمجال يضيق عن ذكر بعض التفاصيل في هذه الدراسات الشيقة ، التي أظهرتها لنا مجلة « الفكر العربي » .

اعداد وعرض : محمد نجيب بوطالب

